

فضل العلم وأخلاق المتعلم

١٢ من ذي الحجة ١٤٣٦ هـ الموافق ٢٥ من سبتمبر ٢٠١٥ م

أولاً: العناصر:

- ١- فضل العلم ومكانة العلماء في الإسلام.
- ٢- الحث على طلب العلم والعمل به.
- ٣- بالعلم والأخلاق ترتقي الأمم.
- ٤- طلاب العلم يبنون ولا يهدمون.

ثانياً: الأدلة:

الأدلة من القرآن:

- ١- قال تعالى: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١].
- ٢- وقال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩].
- ٣- وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [فاطر: ٢٧-٢٨].
- ٤- وقال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].
- ٥- وقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣١ - ٣٣].
- ٦- وقال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥].
- ٧- وقال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْبُرُونَ سُلْطَانًا أَتَاهُمْ كَبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: ٣٥].
- ٨- وقال تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [العنكبوت: ٤٩].

الأدلة من السنة والآثار:

- ١- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ) (سنن أبي داود).
- ٢- وَعَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ ، وَخَيْرٌ دِينِكُمْ الْوَرَعُ) (رواه الحاكم في المستدرک).
- ٣- وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : ذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ) ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ) (سنن الترمذي).
- ٤- وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ وَلِيَتَوَاضَعَ لَكُمْ مَنْ تَعَلَّمُونَهُ ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ) . (أدب الدنيا والدين).
- ٥- وَعَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ) قَالَ : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ تَعَالَى خَشِيَةٌ ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ ، وَمَذَاكِرَتُهُ تَسْبِيحٌ ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ ، وَبَدَلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَمَنَارُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَالْأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ ، وَالصَّاحِبُ فِي الثَّرْبَةِ ، وَالْمُحَدَّثُ فِي الْخُلُوةِ ، وَالِدَلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالسَّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالدِّينُ عِنْدَ الْأَجْلَاءِ ، يَرْفَعُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَقْوَامًا ، وَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَيْمَةً ، تُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خَلَّتِهِمْ ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَاسٍ ، حَتَّى الْحَيَاتَانُ فِي الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ ، وَسِبَاعُ الطَّيْرِ وَأَنْعَامُهُ ، لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ ، وَمِصْبَاحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمِ ، يَبْلُغُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ ، وَالدرَجَةَ الْعُلْيَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ بِالصِّيَامِ ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ ، بِهِ تُوَصَّلُ الْأَرْحَامُ ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ ، إِمَامُ الْعُمَالِ ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ ، يُلْهِمُهُ السُّعْدَاءُ ، وَيُحَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءُ » [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٣٩)].

ثالثاً : الموضوع:

نستقبل في هذه الأيام عامًا دراسيًا جديدًا ، نسأل الله تعالى أن يكون عام فلاحٍ ونجاحٍ لكل طالب علم يخلص لله تبارك وتعالى في طلبه للعلم، وهذا يجعلنا نتحدث اليوم عن فضل العلم وأخلاق المتعلم ، فمما لا شك فيه أن للعلم مكانة عالية في الإسلام ، فهو حياة القلوب ونور الأبصار، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار ، وبه يطاع الله ، وبه يعبد ، وبه يوحد، وبه يُمَجَّد وبه توصل الأرحام ، وبه ترفع الأمم أعلى الدرجات ، فالإسلام دين العلم ، لا يُعرَفُ دينٌ مثله أشاد بالعلم وحثَّ عليه ، ورغب في طلبه ، ونوّه بمكانة أهله ، وأعلى من قدرهم ، وبين فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة ، وحثَّ على التعلم والتعليم ، وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة وهي مفتاح العلم ، ونوّهت بالقلم وهو أداة نقل العلم ، وذلك في قوله تعالى: { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق: ١- ٥].

فهذه أول صيحة تنوّه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل إنسان عظيم أن يقرأ وأن يتعلم ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مكانة العلم في الإسلام لا تدانيها مكانة ، وقد دل على ذلك أنه المنحة الإلهية التي رفع الله بها مقام آدم على ما دونه من الملائكة (عليهم السلام) ، قال تعالى: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } [البقرة: ٣١ - ٣٣].

ولقد عني الإسلام بالعلم بعناية فائقة ، وحث أتباعه على طلبه، والبحث والتفكير في كل ميدان من ميادين المعرفة، وكل مجال من مجالات الحياة ، والقرآن الكريم به الكثير من الآيات التي تشير إلى هذا، قال تعالى: { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } [العنكبوت: ٤٩].

إن العلم ينمّر لصاحبه الخير والهداية، وفضله يزداد عند طالبه، وقد شرف الحق سبحانه وتعالى العالم وميزه عن غيره، وأخبر أنه لا يعقل آياته ويفهمها حق فهمها وينزلها المكانة اللائقة بها إلا العالمون، فقال سبحانه: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الزمر: ٩] ، فالعلم في ذاته غاية ؛ يدل على ذلك ما جاء عن معاذ بن جبل (رضي الله تعالى عنه) قال: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ تَعَالَى خَشِيَّةٌ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ، وَمَذَاكِرَتُهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثُ

عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَالْأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْعُرْبَةِ، وَالْمُحَدَّثُ فِي الْخُلُوعَةِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَالسَّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالِدِّينُ عِنْدَ الْأَجْلَاءِ..

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلَّمُونَ وَلِيَتَوَاضَعَ لَكُمْ مَنْ تُعَلَّمُونَهُ ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ). (أدب الدنيا والدين).

فطبيعة الإسلام تفرض على الأمة المسلمة أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين ، فإن قيمة العلم في الإسلام كقيمة الحياة بالنسبة للإنسان. وكذلك أعلى القرآن الكريم من شأن العلم، فعبر عنه بالسلطان ، فقال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} [غافر: ٣٥]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ} [غافر: ٥٦]. والله در سيدنا علي (رضي الله عنه) حين قال: (العلم خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإِنفاق).

فالعلم ضرورة مُلِحَّةٌ، وحاجة ماسَّةٌ ، عليها تتوقف سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ومن هنا كان طلب العلم فريضةً ، كما روى ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ).

وأما عن فضل العلماء ومنزلتهم ؛ فقد مدح الله أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم ، ورفع منازلهم وقدر جهودهم ، وسما بدرجاتهم حتى قرَّتهم الحق سبحانه بنفسه وملائكته في الشهادة بوحديته والإقرار بعدالته، قال تعالى: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨]. وقال عز وجل: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١]. وما ذلك إلا لأن العلماء أكثر الناس معرفة بربهم، وأحرص الناس على تبليغ كلام خالقهم ، بل هم أكثر الناس خشية لله بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته، فقال : {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨].

ومن ثم فإن للعلماء مكانة عظيمة حفظها لهم الشرع الحنيف لعظم قدرهم في الأمة ، فهم ورثة الأنبياء وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر ، فعن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: دُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(صلى الله عليه وسلم): (فَضَّلُ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ) (سنن الترمذي).

لذلك أمر سبحانه وتعالى بسؤال أهل العلم والرجوع إليهم فيما يشكل ، فقال: { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل: ٤٣].

وأما عن الحث على طلب العلم والعمل به ، فإن طلب العلم والسعي في تحصيله واجب على كل مسلم ومسلمة ، ولقد أوضح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فضيلة طلبه في حديث يدفع كل من قرأه بتدبر إلى المسارعة في طلب العلم ، وإفناء العمر في سبيل تحصيله ، فقال: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ) (سنن أبي داود).

وقد جاء عن سلف الأمة الصالح (رضي الله عنهم وأرضاهم) عدة معانٍ جديرة بالذكر والعناية؛ تبين حقيقة الطلب الشرعي للعلم والهمة التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم. من ذلك: ما روي عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: ليس العلم بكثرة الرواية؛ وإنما العلم الخشية، وكان الحسن البصري (رضي الله عنه) يقول: اعملوا ما شئتم أن تعملوا فو الله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا؛ فإن السفهاء همتهم الرواية؛ وإن العلماء همتهم الرعاية. وَقَالَ مَالِكٌ: العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية؛ ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب؛ وما أحد أمن عليّ من مالك .

ولقد كان في الأمة الإسلامية نماذج من العلماء الذين أثروا الحياة بعلمهم وأخلاقهم ، وإعمال فكرهم، منهم على سبيل المثال: عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) حبر الأمة وترجمان القرآن، عُرِفَ بشيخ المفسرين ، وعبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) من السبعة المكثرين لرواية الحديث، ومعاذ بن جبل (رضي الله عنه) حامل لواء العلماء يوم القيامة ، وأتى من بعدهم أئمة أعلام ملؤوا الأرض علماً منهم: ابن النفيس الدمشقي الذي نبغ في الطب وأول من اكتشف الدورة الدموية ، وأبو بكر الرازي ، وابن سينا، وغيرهم كثير ممن أفادوا البشرية بعلمهم وكانوا مثلاً يحتذى بهم ، فالواجب على شباب الأمة أن يحذوا حذوهم وأن ينهلوا من العلم حتى ينهضوا بالأمة، على أن من الخطورة بمكان أن يتصدى الإنسان للفتوى بدون علم، فيضل الناس، يقول النبي (صلى

الله عليه وسلم): «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَالًا يُفْتُونَهُمْ بِعَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ» [صحيح مسلم].

ومن هذا يتضح أن الإسلام يدعو إلى العلم ويحرر العقل ، ويحث على النظر في الكون، ويُنشئ العقلية العلمية التي تدع وتبتكر، ويرفض العقلية الجاهلة المستسلمة لكل ما يتوارثه الناس، دون مناقشة له ، فالأمة الإسلامية لا يمكن لها أن تنهض إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تتبوأ مكان الصدارة إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تقضي على التخلف والأمراض والفقر إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تقود غيرها إلا بالعلم ، فالعلم هو الأساس لوحدها ، هو الأساس لفلاحها أفرادًا وجماعات ، فالعلم مأمور به قبل العمل ، لأنه أساس له قال الله تعالى : { فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَأ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَعِزَّ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ } [محمد: ١٩].

فالعلم يبني الأفراد وينهض بالمجتمعات؛ وبه تقوى الدول وتتقدم الأمم ؛ والواقع خير شاهد على أن الأمم والدول التي اعتمدت العلم سبيلاً لنهضتها ؛ صارت في مقدمة الأمم؛ وأن غيرها ممن تقاعست بقيت في ذيل الأمم. ومن ثم رأينا الحق حين ذكر العلوم جملة وتفصيلاً؛ قدم العلوم التجريبية على العلوم الدينية؛ لأن عمارة الأرض إنما تكون بتطبيق نظريات الكتاب على واقع الحياة والأحياء. قال عز وجل: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } [فاطر: ٢٧ - ٣٠] فلنعد إلى العلم؛ فالعلم ينبغي أن يكون أولاً؛ وثانياً،،،،،،، وعاشراً؛ على أن يتبعه العمل؛ باعتبار الترجمة الحرفية لقوانين العلم ونظرياته؛ ليتيم بذلك التفاعل بين النظرية والتطبيق.

ولابد لطالب العلم من آداب يجب أن يتحلى بها، نتعلمها مما فعله سيدنا موسى كليم الله (عليه السلام) - وهو نبي مرسل من أولي العزم من الرسل - مع عبده من عباد الله يتعلم منه، كما حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا } (الكهف: ٦٦ - ٦٩)

كما أن على العالم أن يكون متزياً بجميل الأخلاق، فالعلم إن لم يرافقه أخلاق وقيم لا وزن له ولا اعتبار، ولا أثر له في سلوك صاحبه ولا في تغيير الآخرين، وصدق الشاعر حين قال :

لَا تَحْسَبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ *** مَا لَمْ يُتَوَّجَّ رَبُّهُ بِخَلْقِ

فلا بد إذًا للعالم ولطالب العلم أن يتحليا بكريم الأخلاق وأن يكون عملهما متفقا مع قولهما حتى يؤثر ذلك في المجتمع، فعندما ربطت الأمة بين العلم والأخلاق ، عاشت في عزة ورفعة بين الأمم ، وحيث كان الخلق والعلم توأمين، كان الرقي ، وكان الازدهار، ولم يعرف في التاريخ مثل حضارة أمتنا العظيمة ، التي كان أساسها العلم والأخلاق الفاضلة المستقاة من الإسلام ، وصدق النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) [رواه الحاكم في المستدرک].

والعلم النافع هو العلم الذي يقود صاحبه إلى الفضائل ، ويحملة على التحلي بالأخلاق العالية ، ويوجهها وبرشدها ويحافظ عليها ، فمن ثمرات العلم النافع أنه يساعد على البناء والتعمير ، وليس الهدم والتخريب ، يساعد في الإصلاح لا الإفساد ، فعلى كل طالب علم أن يتخلق بأخلاق الإسلام ، وأن يتأدب بآداب العلماء ، وأن يسخر العلم الذي تعلمه لخدمة البشرية وبناء القيم في النفوس ، حتى لا تنتشر الفوضى ويعم الفساد، فهمة طالب العلم الابتكار والإبداع والتفوق، لا الهدم والتخريب والإفساد، فالعلم يدفع صاحبه إلى البناء لا الهدم، وإلى استخدام العقل لا إلى إهماله ولا إلى تعطيله.

إننا بحاجة إلى تذكير أبنائنا وبناتنا في المدارس والمعاهد والجامعات بفضل العلم؛ وحثهم على طلبه خدمة لأنفسهم ومجتمعاتهم ورفعة لأهلهم وأوطانهم.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن فضل العلم وأخلاق المتعلم أن نتذكر هذه الأسر غير القادرة وما تتكبدته في بداية الدراسة، وأن نقف إلى جوارهم فيمتد نهر العطاء إليهم والأخذ بأيدي أبنائهم إلى طريق التفوق والنجاح، فهؤلاء لبنات قوية في صرح التنمية والتقدم، وأفضل أبواب النفقة تعليم الناس الخير.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع ، وأن يجعلنا من السعداء العاملين به ، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.